# صدى العلوم

متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة

ترخيص رقم 2022/244

مجلة فصليّة مؤقّتًا، متخصّصة بالآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة

ISSN 2959-9423

السنة الثانية 20 تموز 25

العدد 9

■ **النسويّة، مسارات تطوريَّة، أُسُس ابستمولوجيَّة ورؤية نقديَّة** / أ.د سحر حجازي

■ **الزواج المختلط بين مختلفي الدين في المجتمع اللبناني** / أ.م.د. تيريز سيف

■ **أدوات المعرفة عند فلاسفة المسلمين** / أ.م.د. الشيخ علي طالب

■ **«ثقافة الحياة» في فكر السيد نصر الله** / د. الشيخ أحمد جاد الكريم النمر

■ **الخطاب الديني في الحرب الإسرائيلية وتوظيفه السياسي** / لارا طلال سليمان

■ **أزمة الهويّة الوطنيّة وأثرها على النّظام السّياسيّ في لبنان** / نجاح حسين مشكور آل عيسى

■ **حريّة الرأي والتّعبير وإشكاليّة التّطبيق** / أسامة فاضل كاظم الجبوريّ

■ **The Uprising Conflict in Prompt Writing** / Dr. Lilian Nasser Abi Shakra

# دار بيروت الدولية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

00961373983

# الامتلاء السكاني في جبل عامل

## عوامله، أسبابه ونتائجه

محمّد حسن بزّي[1]


### ملخص البحث

يحاول النص بناء سرديّة متكاملة لقصّة الامتلاء السكاني في جبل عامل بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وذلك من خلال مجموعة قليلة من النصوص الصغيرة، وبعض الإشارات التي وردت على هامش الأحداث الكبيرة التي عصفت بمستقبل المنطقة، القريب منها والبعيد، بعد الفتح.

فمرور الرحالة محمد بن أبي بكر المقدسي في جبل عامل في القرن الرابع الهجري، أوضح بالتوثيق العلمي أن الجبل كان خالٍ من السكان، ولم يكن أكثر من حديقة خلفيّة لبلدة «قَدَس» الواقعة في الجليل الأعلى. وبعدها بحوالي قرنَيْن من الزمن، عرض الرحالة ابن جبير أحوال سكانيّة مهمّة لسكان الجبل، وهم تحت الاحتلال الصليبي. فما الذي حدث؟

هنا؛ يعرض النصّ الأسباب المباشرة التي دفعت جزءًا من السكان في مختلف أنحاء فلسطين والأردن إلى الهجرة إلى جبل عامل، وكيف كان الغزو الصليبي للمنطقة السبب المباشر لعمران جبل عامل بأهله الجدد. فكيف عاش بعدها الناس


(1) طالب في مرحلة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة القدّيس يوسف، لبنان.

تحت الاحتلال الذي لحقهم إلى الجبل، وكيف نظّموا أنفسهم بعد ذلك ليُصار إلى تكوين أول كيان اجتماعي – سياسي في الجبل له مواطنوه وقائده وعسكره، وما هو الدور الذي لعبه السكان الجدد للجبل في رسم خارطة طريق المنطقة في ضوء الصدام الإسلامي – الصليبي، وإلى أين آلت أموره بعد ذلك.

**كلمات مفتاحية:** جبل عامل، حسام الدين بشارة، الاحتلال الصليبي، صلاح الدين الأيوبي، فلسطين.

**Abstract**

The text attempts to construct a coherent narrative regarding the population density in Jabal Amel following the Islamic conquest of the Levant. This is achieved through a limited set of brief texts and scattered references that appeared on the margins of major events which shaped the near and distant future of the region after the conquest.

The passage of the traveler Muḥammad ibn Abī Bakr al-Maqdisī through Jabal Amel in the **4**th century AH (**10**th century CE) provides scientifically grounded documentation that the mountain was largely uninhabited at the time, serving merely as a backyard to the town of Qadas in Upper Galilee. Roughly two centuries later, the traveler Ibn Jubayr described significant demographic developments among the inhabitants of the mountain under Crusader occupation. What had changed in the interim?

The text explores the immediate causes that led portions of the population from various regions of Palestine and Jordan to migrate to Jabal Amel, highlighting the Crusader invasion as the direct catalyst for the settlement and population growth in the area. It then examines how these new inhabitants lived under the subsequent occupation that pursued them into the mountain, and how they organized themselves to form the first socio-political entity in Jabal Amel—complete with citizens, leadership, and an armed force. The role played by these new settlers in shaping the region's trajectory during the Islamic-Crusader conflict is analyzed, along with the eventual outcomes of their actions.

**Keywords:** Jabal Amel, Husam al-Din Bishara, Crusader Occupation, Salah al-Din al-Ayyubi, Palestine.

## مقدمة

«جبل عامل» اسم لمنطقة جغرافيّة من بلاد الشام، سُمّيت لاحقًا «جنوب لبنان»، بعد تقسيم «سايكس ـ بيكو» لمنطقة المشرق العربي. ويقع الجبل ضمن المنطقة الواقعة من مجرى نهر الأولي شمالًا، إلى الحدود الدولية مع فلسطين المحتلة جنوبًا[1]، وهناك اختلاف في تحديد حدوده الجغرافيّة حسب رأي العديد من الباحثين.

حدث أن رُويَ الكثير من المقولات عن دور كبير للصحابي أبي ذر الغفاري في تحديد الهويّة الدينيّة لأهل هذا الجبل بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام، ولكن كل تلك المقولات تحتاج إلى تدقيق علمي لتعدّدها واستبيان المصادر الموثوقة فيها، هذا فضلًا عن أن جبل عامل لم يكن بعد قد عَمُرَ بسكان مسلمين أو غير مسلمين بعد الفتح، وِفاق المرويّات التاريخية، وسنرى كيف أنه بقي خالٍ من السكان لمدّة طويلة.

## الإشكالية

إذًا، لا بدّ من عوامل جغرافيّة أو سياسيّة جعلت مجموعة من الناس تنتقل إلى هذا المكان، فيعمر بها وينتقل من حالٍ إلى حال، وتتحوّل جبالُه ووديانه وسهوله، من حالة اليباب التي لا ناقة فيها ولا جمل، إلى حالةٍ من العمران السكاني، وما يتّبعها عادةً من تطوّراتٍ ثقافيّة وسياسيّة، تحدث عند التحوّلات والهجرات السكانيّة التي تتّخذ نوعًا من التحوّلات البنيويّة في تاريخ أي منطقة على أثر تحوّل كهذا، وهنا تطرح الإشكالية نفسها عبر أسئلة تجول في خاطر الباحثين، وهي:

- ما الذي جرى حتى تحوّل جبل عامل إلى حاضرة سكانيّة أساسيّة في بلاد الشام، ولاحقًا الجمهورية اللبنانية؟

(1) حسن نور الدين: **عاشوراء في الأدب العاملي المعاصر**، الدار الإسلامية، بيروت، ط 1، 1988م، ص 14.

- وما هي العوامل التي دفعت إلى امتلائه سكانيًّا؟
- وهل لهؤلاء السكان الجدد من دور سياسي يُذكر في الحركة السياسيّة وما يصحبها من حراك متنوّع في حاضر المنطقة حينها؟ وإلى أي مدى كانوا مؤثّرين على حركة التاريخ فيها؟

## المنهج المعتمد

في الدراسات التاريخية، لا يمكن الحديث عن حادثة سابقة، أو مسألة خلافية في الزمن دون الرجوع إلى مجريات تفاصيلها عبر استرجاعها والحديث عنها، ومن ثمّ الدخول في عالم التحليل من خلال اعتماد المنهج التحليلي.

## أوّلًا. جبل عامل في عصر المقدسي (القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد)

إن أول إشارة حقيقية إلى جبل عامل وصلتنا من القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد. يعود فيها الفضل إلى المقدسي، محمد بن أبي بكر البناء. في كتابه «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**». فالمقدسي جغرافي رحّالة، بدأ حياته تاجرًا يجوب البلاد والأمصار في طلب الرّزق. ثم انقطع إلى تتّبع أحوال هذه البلدان، فطاف في الكثير من بلدان المنطقة، وأودع خلاصة ملاحظاته كتابه المذكور الذي «جاء مثالًا يُحتذى في الكتابة الجغرافية المُتَّقنة»[1]. كما وُصف بأنه «آخر الجغرافيّين العظام»[2]. كل هذا، فضلًا عن أنه، عرف المنطقة معرفة مباشرة وجيدة.

يتحدّث المقدسي عن بلدة «قَدَس»[3]، فيصف أنها «مدينة صغيرة على سفح جبل،

(1) شاكر خصباك: **في الجغرافيا العربية**، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1988م، ص 283.

(2) عمر رضا كحالة: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، المكتبة العربية، دمشق، لا ط. 1972م، ص 224.

(3) استنادًا إلى السيّد «محسن الأمين» في كتابه «**خطط جبل عامل**»، فإن «قَدَس» قرية في سهل الحولة، عند أطراف جبل عامل الجنوبية الشرقية، هاجر أهلها بعد احتلال فلسطين في العام 1948م، وعامّتهم يقيمون اليوم في مختلف أنحاء لبنان، كانت قبل الإحتلال تابعة إداريًّا لقضاء صور. للمزيد: راجع: محسن الأمين: **خطط جبل عامل**، الدار العالمية، بيروت، ط 1، 1983م، ص 213.

كثيرة الخير، رستاقها جبل عامل»[1]. وهو نصّ نادر وثمين، لأنه أول ما وردنا عن عمران محيط بجبل عامل في مرحلة مبكرة ومجهولة تمامًا من تاريخه.

أهم ما في نصّ المقدسي، تلك الإشارة إلى أن جبل عامل كان في زمن النص معمورًا عمرانًا ما «ذو قرى نفيسة». ويعزّزها مقولته: «رستاقها جبل عامل». والرستاق هو أشبه بالحديقة الخلفيّة. وللعلم فإن «قَدس» التي وصفها المقدسي بأنها «مدينة صغيرة»، ليست إلّا بلدة لا يزيد عدد سكّانها على الألف نسمة، استنادًا إلى بعض المقاربات الواردة في المصدر نفسه.

يفيد هذا التصوّر بأن تلك القرى النفيسة لم تكن أكثر من قرى صغيرة أشبه بالمزارع، يعيش أهلها عيشة زراعيّة بسيطة في أرضهم الفقيرة، مُعتمِدين على ما يُسمَّى اليوم بالزراعة البعلية، بما يشير قوله: «والمطر يسقي زروعهم». وهي نفسها الطريقة التي ما تزال غالبة حتى اليوم، بالإضافة إلى ما جدّ من استخراج الماء من الأعماق[2].

ثم إن المقدسي يعود إلى ذكر جبل عامل في الفصل التالي، تحت عنوان «جُمل شؤون هذا الإقليم»، وعلى المنهج الذي التزم به في كتابه، يأتي على ذكر إنتاج «ارتفاع» كل بلد، فنراه لا يذكر من جبل عامل إلا العسل «وخير العسل ما رعى السعتر بإيليا وجبل عامل»[3]. يعرض بعدها المسافات بين بلدان الإقليم عرضًا يُذَكِّر بالدليل السياحي اليوم، فتراه لا يذكر من جبل عامل سوى قريَتَيْن، هما «مجدل سلم وكفر كيلا (كفركلا)»[4]، وهما قريتان متقاربتان جغرافيًّا، معروف كلّ منهما بالاسم نفسه حتى اليوم، وتقعان في أعالي الجبل. ويظهر من اسمَيْهما الأراميَّيْن أنهما قديمتان، كما يُفهم من هذه الملاحظة أيضًا أنهما كانتا في ذلك الأوان تشكّلان

(1) محمد بن أبي بكر البناء المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1991م، ص 184.
(2) جعفر المهاجر: **جبل عامل بين الشهيدين**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، قسم الدراسات العربية، دمشق، ط 1، 2005م، ص 34.
(3) محمد المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مصدر سابق، ص 184.
(4) المصدر نفسه، ص 188.

أكبر تجمّعات سكنية، وذلك لأن غرض الكاتب العارف هنا متعلّق ومتوقّف على الاستيفاء التام.

يتابع المقدسي ويقول: «وأمّا الجبال الشّريفة... وجبل صدّيقا بين صور وقَدَس وبانياس وصيدا ثم قبر صدّيقا، عنده مسجد له موسم، يوم النصف من شعبان يجتمع إليه خلقٌ كثير من هذه المدن ويحضره خليفة السلطان واتفق وقت كوني بهذه الناحية يوم الجمعة في النصف من شعبان فأتاني القاضي أبو القاسم بن العبَّاس حتّى خطبتُ بهم فبعثتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد ففعلوا وبنوا به منبرًا...»[1].

واستنادًا أيضًا إلى السيد محسن الأمين، وهو الخبير والمتحدّر من هذه المنطقة، فإن قرية «صدِّيق» يوم قدّم لها في كتابه «**خطط جبل عامل**» كانت «قرية خربة قرب تبنين من شرقيّها. على رأس جبل، فيها قبر عليه قبّة، يُعرف صاحبها بصدّيق، وبه سُمِّيت القرية، وفيه مسجد ومحرابه باقٍ»[2]، وهي اليوم تعدُّ جزءًا من بلدة تبنين، وهي بالطبع غير بلدة «صديقين» في قضاء صور.

ثم، إن الجمع بين النصّين، نصّ المقدسي ونصّ السّيد الأمين، يُظهر أن القرية الدّارسة كانت قد مُصِّرت بعد القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. لأن المقدسي يحدِّثنا عن صرف جبل وقبر عليه قبَّة، ولا شيء سوى ذلك. ولو كانت ثَمَّة قرية لما أغفل ذكرها، ولما قَصَرَ كلامه على المشهد.

من مجمل هذا التحليل؛ يُستنتج أن جبل عامل في الرّبع الأخير من القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد، لم يكن، من حيث عدد سكانه، على الصفة التي دخل بها التاريخ فيما بعد. والأرجح أن عمرانه تمثّل في قرى متناثرة أشبه بالمزارع، وأن نسبة السّكان إلى مساحة الأرض كانت في حدودٍ دنيا. بالإضافة إلى أن المقدسي

(1) محمد بن أبي بكر البناء المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مصدر سابق، ص 188.
(2) محسن الأمين: خطط جبل عامل، مرجع سابق، ص 302.

يؤكّد وجود حواضر حول الجبل من خلال ذكر كلٍّ من «صور وقَدَس وبانياس وصيدا».

كذلك تُظهر مصادر أخرى، وجود سكان على جميع أطرافه. فبالإضافة إلى «قَدَس»، التي كانت حاضرة الجبل، بدليل وصف المقدسي لجبل عامل بأنه رستاقها، يظهر أن مدينة صور الساحلية كانت مسكونة أيضًا، وذلك بإشارة الرحّالة «ناصر خسرو» الذي ذكر أن معظم أهل صور كانوا من المسلمين شيعة، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد[1].

بالاستناد إلى كل ما تقدم؛ وعلى رأس ذلك قول المقدسي، نستطيع أن نقول أن جبل عامل كان حتى ذلك الوقت منطقة شبه خالية من السكان، دون إغفال بعض التواجد القليل هنا وهناك، حتى أن الطقوس التي ذكرها المقدسي، والتي كانت تقام في ليلة النصف من شعبان، كان يحضرها أهل الحواضر المحيطة بجبل عامل، ولا يوجد ذكر فيهم لناس من هذا الجبل.

تجدر الإشارة هنا؛ إلى أن هناك مناطق عدّة في لبنان، كالبقاع والشمال وجبل لبنان، وخصوصًا كسروان وجبيل، كانت قد امتلأت بشكلٍ كثيف بوجود قبائل شيعيّة، على رأسها «همدان»، كما ذكرت الكثر من المصادر، وهو ما أكّد عليه لاحقًا المؤرّخ كمال الصليبي في كتابَيْه: «**تاريخ لبنان الحديث**» و«**بيت بمنازل كثيره**»، لكن بحثنا هنا لا يسعفنا للخوض بكل تلك المراحل والمناطق.

## ثانيًا. جبل عامل في عصر ابن جبير (القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد)

بعد قرنين وبضع سنين من زمن تلك الصورة التي استُخرجت عناصرها من نصّ المقدسي، تأتي المفاجأة بأخرى مختلفة تمام الاختلاف لجبل عامل، تتشكّل

(1) ناصر خسرو: **سفر نامه**، ترجمة يحيى الخشّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1993م، ص 60.

عناصرها من الرحّالة ابن جُبير، محمد بن جُبير الكناني[1]، في رحلته المشهورة. وهو كان قد اجتاز من «هونين» باتّجاه الساحل عند «عكّا»، ما بين نهار السبت 7 جمادى الآخرة 579هـ/ 15 أيلول 1183م، ونهار الإثنين التالي، أي في يومين وبعض يوم. ومع ذلك فإن ما سجّله ثمينًا جدًّا. يُؤخذ منه موضع الأهمّيّة والفيصل، إذ يقول: «فرحلنا عنها (أي عن بانياس) عشيّ يوم السبت المذكور إلى قرية تُعرف بالمَيْسيّة (ميس الجبل)، بمقربة من حصن الإفرنج المذكور (يعني حصن هونين) فكان مبيتنا بها. ثم رحلنا منها يوم الأحد سَحَرًا. واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بوادٍ ملتفّ الشّجر. وأكثر شجره الرّند. بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى. تلتقي حافّتاه، ويتعّلق بالسّماء أعلاه. يُعرف بالاسطبل، لو ولجته العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه من يد الطالب فيه، المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودتان، فعجبنا من أمر ذلك المكان. فأجزناه ومشينا عنه يسيرًا وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يُعرف بتبنين. وهو موضع تمكيس القوافل. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن»[2]. ثم يُردف فيقول: «ورحلنا عن تبنين، سَحَر يوم الإثنين، وطريقنا كلّه ضياع متّصلة وعمائر منتظمة، سكّانها كلهم مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشّجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضًا. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم»[3].

هذه الصورة فريدة لأحوال جبل عامل وأهله تحت الاحتلال الصليبي، سجّلها

(1) هو أبو الحسين محمد بن جبير الكناني الأندلسي (539–614 هـ / 1144–1217 م)، وُلِدَ التاجر الأندلسي في مدينة بلنسية الإسبانية، وكان من طلاب علم الفقه والحديث، كما أنه برع في العلوم القرآنية والأدب والشعر، عُرِف بعاطفته الدينيّة الجياشة، وهذا بيِّن في نص رحلته التي سلط الضوء فيها على عجائب بلاد المسلمين ومشاهدها الدينية من مساجد ومزارات، كما أنه لم ينسَ ذكر أحوال الناس الاجتماعية وشؤونهم السياسية. محمد بن جُبير الكناني المعروف بـ«ابن جبير»: **رحلة ابن جُبير**، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2010م، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ص 208.

(3) المصدر نفسه، ص 209.

ابن جُبير بعد سقوط الجبل بثمانية عقود. وهي، كما تقدّم، ثمينة من حيث أنها تصف حالة العمران، وتقف بالباحث والقارئ على بعض وجوه الحياة والإنتاج والعلاقة مع المحتلّ، ممّا لا يوجد عند أحد سواه.

لقد كانت قلعة تبنين، التي قضى ابن جُبير أسفلها ليلة الإثنين التاسع من جمادى الآخرة / الثامن عشر من أيلول، مركز الأمير الصليبي الحاكم لها وللمنطقة التي وصفها بأنها «ثغر بلاد المسلمين».

إن أكثر ما أتى به ابن جُبير أهمية بالنسبة لموضوع البحث هو قوله، إنه مذ رحل عن «تبنين»، كانت طريقه كلّها «على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة، سكّانها كلهم مسلمون». وهو نصّ لا ينقصه الوضوح على مبلغ العمران الذي صار إليه هذا الجزء من جبل عامل على الأقلّ. وإذا تمّت مقارنته بالصورة التي يخرج بها الباحث من دراسة نصّ المقدسي، والتي ترجع إلى ما قبل قرنَيْن من الزمن، يظهر وكأن طفرة سكّانية حصلت فيه، نالت وضعه السكاني والتنموي معًا. وهو ما أشار إليه ابن جبير بعبارته السابقة المقتبسة مرّتين. وثم بوصفه لنمط العلاقات التي قامت بين السّكان وسلطات الاحتلال، التي أخذت عناصرها من أنهم إقطاعيّين ـ مُحتلّين يُقاسمون المزارعين إنتاجهم الزراعي بنصف الغلة عند أوان ضمّها، وضريبة معلومة على الأشجار المثمرة. وهذا إجراء إقطاعي نموذجي، بالإضافة إلى الجزية على الرّأس. وقد صدر هذا عن سلطة الاحتلال كإجراء، عسكري ـ سلطوي.

أين هذه الصورة الواضحة الغنيّة، التي استقاها الرحّالة عفويًّا ودون جهد، وهو يجتاز جبل عامل في يومَين، من تلك الصورة الفقيرة التي أجهدت الباحثين في لمِّ عناصرها من لوازم وإشارات المقدسي؟ والمفروض والمؤكّد أن المقدسي أعرف من ابن جُبير بكثير بموضوع كلامه. وأين هاتيك «الضياع المتّصلة والعمائر المنتظمة» من حالة الخواء وشبه اليباب التي تمّ الخروج بها من تحليل كلام المقدسي؟

ويمكن القول في الجواب، دونما كبير تأمّل وإعمال فكر، إن أمرًا ما قد حصل لجبل عامل بين القرنَيْن الرابع والسادس للهجرة/ العاشر والثاني عشر للميلاد يجب وضعه في السّياق، فالتاريخ سلسلة منطقية. ومن المؤكّد أن ما وصفه ابن جبير لم يكن ابن يومه، بل كان واقعًا مؤسّسًا راسخًا. اقتضى زمنًا وعمل أجيال. وعليه؛ فإذا كان الفارق الزمني بين نصّي المقدسي وابن جبير قرنَيْن وبضع سنين قمرية (**579ـ375** هـ)، فإن هذا لا يعني أن الفارق هو نفسه بين موضوعَي نصيّهما. وبذلك، يمكن وبكامل الثقة، أن يُقلّص الفارق بين الموضوعَين بضع عقود من الزمن. وهذا ما سيظهر بعد قليل. وما لا ريب فيه أيضًا، أن ما وصفه ابن جبير، مُقارنًا بما أُخِذ عن المقدسي، يفوق بكثير معدّلات الزّيادة الطبيعية ومعدّلات التنمية العاديّة، خصوصًا إذا ما أُخذ بالحسبان ما عُرِف عن فقر الأرض العامليّة وشُحّ مياهها، وما خَلُصت إليه الدراسة بداية الحديث، من أن نسبة السكّان قياسًا إلى مساحة الأرض كانت في حدودها الدنيا.

وهذا يحدّد السؤال، حيث يمكن أو يجب صياغته على النحو التالي: ما الذي حدث فنقل جبل عامل من حال إلى حال، وبدأ سلسلة من التطوّر المتعاقب الحلقات؟

لا حاجة إلى الذهاب بعيدًا للبحث عن الجواب. إنه في الحدث الأبرز في تلك المرحلة. نعم، إنه الاحتلال الصليبي، الذي كان لمدة قرنَين العامل الأول في جملة الأحداث السياسيّة والعمرانيّة والسّكانيّة، في منطقة واسعة مركزها مدينة «القدس». والتي كانت الهدف الأول المعلن للغزو. حيث يمتنع تصوّر أمر كبير يحدث، أو تبدأ أسبابه وصيرورته، في كل هذه المنطقة، دون أن يكون على علاقة بهذا الغزو، بدرجة ما.

## ثالثًا. تشكّل الكيان البشري وعلاقته بالاحتلال الصليبي

كان كلٌّ من الأردن وفلسطين، كما كلّ الشام بعد الانتشار الإسلامي في القرن الأول الهجري، مصبًّا لهجرات كبيرة قادمة من الجنوب، إضافةً إلى هجرات خرجت

من العراق بعد سقوط المشروع السياسي الذي حمل لـواءه الإمـام علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده ابنه الإمام الحسن عليه السلام. وقد ساهمت في ذلك المشروع قوى قَبَلية كبيرة، أهمّها على الإطلاق «همدان»[1]، ثم «ربيعة» و«مذحج»[2]. الأمر الذي جعل من الكوفة، ولمدة طويلة من بعدُ، أهم وأكبر تجمّع شيعي في العالم الإسلامي. فحينما سقط المشروع الذي تجمّعوا من أجله، انعكست الحركة التي جذبتهم وانفرط ذلك النظام، وبدأوا يتركون المدينة المهزومة. ونالت الشام من المهاجرين النصيب الأوفر، لا سيّما جبال الجنوب وأغواره، لأسباب يطول شرحها. ويتجاوز بيانها غرض البحث[3].

لكن، وفي إطار محاولة وصف حال المنطقة المجاورة لجبل عامل عشيَّة الغزو الصّليبي، ينبغي الاهتمام وبشكلٍ خاص بمن عُرفوا في كتب السِّير والتاريخ باسم «همدان الأردن وفلسطين»، بوصفهم طليعة حركة الاستيطان، إذ كان لهم أبعد الأثر في الصورة السّكانية.

إن استيعاب همدان، القادمين من اليمن أصلًا، في «جند الأردن»، بدأ في وقتٍ مبكر، وذلك بُعيد سنة **13**هـ/ **634**م تحديدًا. والظاهر أن هؤلاء كانوا فاتحة هجرة همدانية واسعة، خرجت من الكوفة فيما بعد باتجاه الشام في وقتٍ ما من العقد

(1) همدان: قبيلة يمانية، كانت ديارهم شرقي اليمن، أسلموا على يد الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وشاركوه أفراحه وأتراحه، وانتظموا في جيوشه وشاركوا في حروبه، حتى قال فيهم يومًا «عبّيت همدان وعبّوا حميرا»، بإشارة واضحة إلى ذلك النزاع السياسي الحادّ بين أمير المؤمنين ومعاوية، والقِسمة القَبَلِيَة التي كانت حينها وما كان لهمدان من دور بنيوي مع الإمام. لقد انتقل جزء من همدان اليمن إلى المدينة الحديثة التمصير حينها «الكوفة»، مع نقل الإمام عاصمة الدولة الإسلامية إلى هناك. راجع: جعفر المهاجر: **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا**، دار الملاك، بيروت، ط 1، 1992م، ص 67 وما بعدها.

(2) قبيلتان عربيتان، الأولى كانت منتشرة في وسط وشمال وشبه الجزيرة العربية، والثانية يمنية، لهم ما لهمدان من سيرة بعد الفتح الإسلامي. إخلاصهم للمشروع السياسي الذي قاده الإمام علي(ع) لم يكن بأقل من إخلاص همدان، خصوصًا ربيعة. لكن دورهم لم يكن يداني دور إخوانهم الهمدانيّين. راجع: جعفر المهاجر: **شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه**، دار بهاء الدين العاملي للطباعة والنشر، بعلبك ـ لبنان، ط 1، 2013م، ص 37 ـ 38.

(3) للمزيد راجع: جعفر المهاجر: **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا**، مرجع سابق، الفصلين الرابع والخامس.

الخامس للهجرة، في الظرف السياسي الذي تمّت الإشارة إليه أعلاه. كان من أثرها أن غدت هذه القبيلة ذات التاريخ العنيف قوّة سياسيّة ذات أثر في المنطقة. وتبعهم الأشعريّون بعد ذلك بأربعة عقود تقريبًا، وهم بطن من مذحج، فنزلوا «طبريّة»، حيث إنهم في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كانوا «الغالبين على أهلها»[1]. فضلاً عن هجرات أقلّ شأنًا، وإن كانت ذات صفة تراكميّة، خرجت من الكوفة أيضًا، تلك الهجرات وأشباهها ممّا ضاع ذكره، شكّلت مع الوقت عاملًا سكّانيًّا قويًّا في فلسطين[2].

ولكن قبل البدء بتبيان تلك الهجرة الواسعة التي عصفت بالشيعة في مرابعهم الأصليّة الدافئة والخصبة، فنقلتهم إلى موطنهم الجديد، لا بدّ من ذكر حادثة حصلت قبل حوالي ثلاثة عقود من الزمن على بدء الاحتلال الصليبي، في مدينة «طبريّة» على وجه الخصوص، بالإضافة إلى عدّة مدن أقلّ شأنًا. ففي سنة **464**هـ، بدأت حملات السلاجقة[3] على المناطق الشيعيّة المحيطة بجبل عامل، وبعض المناطق الأخرى، كطرابلس وغيرها. وقد كانت السّمة الأساس لهؤلاء وحكمهم، التعصّب المذهبي، بخاصة ضدَّ الشّيعة الإماميّة. فتعرّضت مدينة «صور» لحملة كبيرة لكنها بقيت صامدة في وجه الغزاة بسبب حصانتها الفريدة وأهلها الأشدّاء. وفي نفس السنة سار هذا العسكر إلى عكّا وحاصرها

(1) جعفر المهاجر: **جبل عامل بين الشهيدين**، مرجع سابق، ص 43.

(2) محمد المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مصدر سابق، ص 179.

(3) هم عناصر تركية، ينتسبون إلى جدهم الأكبر «سلجوق»، دخلت تسلّلًا بمجموعات كبيرة إلى العالم الإسلامي، وأعلنت إسلامها. احتلّ السلاجقة مساحات واسعة من إيران والعراق. ودخلوا بغداد دون قتال، فأخضعوا سكّانها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. بعد ذلك عزّزوا وضع الخليفة العبّاسي فيها، الذي كان قد سبق أن خضع لبعض الأمراء الشيعة الذين نجحوا في فرض إرادتهم عليه لأكثر من مائة سنة، إلى أن استنجد بالسلاجقة الأتراك الذين دخلوا بغداد فاتحين وأعادوا بثّ الروح في سلطة الخلافة، فعادت السلطة الروحية للخليفة في بغداد، وبدوره أعطى زعيم السلاجقة حينها «طغرل بك» لقب السلطان، وبالتالي جعله صاحب السلطة الدنيوية الزمنية الشرعي. للمزيد راجع: مصطفى بزي: **الشيعة في لبنان، تاريخهم ودورهم، البدايات حتى عصر الشهيد الأول**، بحث ضمن المؤتمر الدولي في فكر الشهيدين، إصدار جمعية الإمام الصادق لإحياء التراث العاملي، بيروت، ط 1، 2011م، ج 1، ص 56.

وأخرب سوادها[1]، ومن ثم «توجهوا إلى طبريّة، فنزلوها، واقتسموا البلاد وأخذوا أغلالها، وقام أتسز الخوارزمي (قائد الحملة) في سنة **467**هـ، بنهب طبريّة وقتل أهلها»[2]، فتهجّر جزء من أهل المدينة إلى جبل عامل[3]، وبذلك يمكن القول أنه منذ ذلك الوقت بدأ يضعف التواجد الشّيعي فيها.

بعد ما جرى، ارتبط والي صور مع السلاجقة بعلاقات ودّية، وعمد مع والي طرابلس إلى مصانعتهم بالهدايا والملاطفات[4]. وهذا ما يفسر تجاهل السّلاجقة لهاتَيْن المدينتَيْن، وعدم سقوط المدينتَيْن عسكريًّا بأيديهم، بل أصبحتا طوعًا في كنفِ حكمهم.

إن الأهميّة التاريخيّة لهذه الحادثة، تكمن في إيجاد الأسباب لاحقًا لانتقال الشيعة المنتشرين في مدن وقرى الأردن وفلسطين إلى «جبل عامل» بالتحديد، وذلك بعد المجازر المهولة التي ارتكبها الصليبيّون في التجمعات السكّانية التي اجتاحوها وعلى رأسها «القدس». فلو كان جبل عامل خالٍ تمامًا من السّكان الشّيعة صبيحة الغزو الصليبي، لكان من غير المعقول أن يتحوّل كل الشيعة في تلك المدن والقرى إلى الجبل، وبهذه السرعة كما سيظهر بعد قليل.

فالتنسيق نحو الوجهه المفترضة، بين سكّان كل هذه الأمصار، المنتشرة طولًا وعرضًا، مستحيل، بالإضافة لتلك الظروف المعيشيّة والأمنيّة القاسيّة وصعوبة التنسيق والاتصال السريع في تلك المرحلة من الزمن.

إذًا، يجب أن يكون هناك سبب ما جعلهم، وعلى كل انتشارهم، أن يزحفوا

(1) المرجع نفسه، ص 60.

(2) يوسف بن قزأوغلي المعروف بـ «سبط ابن الجوزي»: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق علي سويم، مطبعة الجمعيّة التاريخيّة التركيّة، أنقرة، 1968م، ج 6، ص 175.

(3) المصدر نفسه، ج 6، ص 176.

(4) المصدر نفسه، ج 6، ص 185.

بأغلبيّتهم نحو جبل عامل. فالسبب الأقوى ومن دون أدنى شك، هو وجود جماعات شيعيّة سبقتهم إلى المكان قبل عدّة عقود، ولنفس الدافع الذي جعلهم يلحقون بهم، هو «الهرب من الإبادة».

وبالعودة إلى الحدث الأبرز، وصاحب المركزية في النص، «الاجتياح الصليبي»، فقد تضافرت عوامل عديدة، اجتماعيّة ونفسيّة وسياسيّة، على جعل وطأة الحرب على المدنيّين، الذين كانت مدنهم وقراهم في نطاق الأعمال العسكرية للغزاة الصليبيّين، أقسى وأفدح ما يكون.

لقد اجتمع في تركيبة الجيش الغازي، اللصوص والمجرمون، وكل من أراد أن يبحث عن نفوذٍ إقطاعيّ في هذه الدّيار الجديدة، إلى جانب المتديّنين المتعصّبين الذين امتلأت نفوسهم بالأضاليل[1]، حيثُ صُوِّرَ لهم قتال المسلمين أقرب طريق إلى السّعادة الأُخروية. أما قادة الغزو والمحرّضون عليه، من رجال الكنيسة الأوروبية وأمراء وتجّار، فقد نظر كلٌ منهم إلى ما يمكن أن يعود عليه من منافع ماليّة أو سياسيّة.

وهكذا التقت مصالح الغزاة عند مطلب واحد، هو انتزاع الأرض من أهلها والإقامة فيها، بقتلهم أو أسرهم وبيعهم كعبيد. وبالتالي سلب كل ما تصل إليه أيديهم من ثروة ومتاع. وهذا ما يفسّر القسوة المهولة التي عومل بها المدنيّون في بدايات الغزو خصوصًا. وقد بان ذلك جليًّا حين سقوط المدن الكبرى كالقدس، حيث كانوا يعمدون إلى تنظيم مذابح شاملة، يُقتل فيها عشرات الألوف دون تمييز[2].

وهنا نورد كلامًا صريحًا يدل على فظاعة ما جرى، إذ «لم يبقَ بين عكّا والقدس

(1) فوشيه الشارتري: **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة زياد العلي، دار الشروق للنشر والتّوزيع، عمّان، ط 1، 1990م، ص 35.

(2) المرجع نفسه، ص 75.

ضيعة عامرة»[1]. وهذه المنطقة الواسعة، التي كانت غاية في العمران قُبَيل الحرب، آل أمرها إلى الخراب التام، ومن ذلك مدينة «طبريّة»، بما يحيط ببحيرتها الواسعة العذبة من عشرات القرى والمزارع[2]، وقد سقطت في وقتٍ مبكر، بعد السقوط الفاجع لمدينة القدس مباشرةً. وصيّرها المحتلّون مركز تجمّع عسكري لهم، ينطلقون منه إلى الحرب والإغارة، كما جعلها المسلمون غداة فتح «بلاد الشام»[3].

أما عن من تبقّى من أهل مدينة «طبريّة»، فقد فرّوا منها قبل وصول الغزاة إليها، إلّا أقلّية من السّريان[4]. وليس من الصعب تصوّر سبب فرارهم، مع من حولهم من أهل القرى المحيطة بهم، بعد العلم بالفظائع المهولة التي ارتكبت في القدس.

وبالنسبة لصور؛ فقد أتاحت لها حصانتها الفريدة أن تصمد حوالي ربع قرن، لتسقط في سنة 518هـ/ 1134م، بعد حصارٍ قاسٍ وطويل، أشرف بسببه أهلها على الهلاك، ثمّ انتهى بالتعاهد على أن يأمن كلّ من فيها، ويخرج من أراد الخروج، ويقيم من أراد البقاء[5].

ويبدو أن تاريخ جبل عامل بدأ من هذه النقطة الكئيبة، ما عُرِف منها وما ضاع في عتمة تلك الأيام، ذلك أنه لا مِراء أن أهل أكبر حاضرتَيْن بجواره قد اتّجهوا إلى الجبل المجاور. وأنّى لهم أن لا يفعلوا؟ وأين يولّون وجوههم إن لم يكن إليه؟ ودائمًا كانت الجبال ملجأً لمن يستعصم بها[6].

(1) أبو يعلى حمزة المعروف بـ«ابن القلانسي»: **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط 2، 1908م، ص 186.

(2) جعفر المهاجر: **التأسيس لتاريخ الشّيعة في لبنان وسوريا**، مرجع سابق، ص 168.

(3) جعفر المهاجر: **التأسيس لتاريخ الشّيعة في لبنان وسوريا**، مرجع سابق، ص 216.

(4) سعيد عاشور: **الحركة الصليبيّة، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 9، 2010م، ج 1، ص 211.

(5) جعفر المهاجر: **التأسيس لتاريخ الشّيعة في لبنان وسوريا**، مرجع سابق، ص 216.

(6) المرجع نفسه، ص 217.

إن أول إشارة وصلت عن بدء عُمران جبل عامل، يرجع موضوعها إلى سنة **505**هـ/ 1111م. وقد وردت في سياق الكلام عن الأعمال العسكريّة الصليبيّة ضد مدينة «صور» الصامدة، حيث تصف كيف نهض «أتابك دمشق»[1] إلى نجدة المدينة المحاصرة، فيُذكر على هامش ذلك الحدث أن «أتت أهل صور رجّالةٌ كثيرةٌ من جبل عاملة، رغبوا في ذلك»[2]، يعني في نجدة المدينة. وهو نصّ يدل على أن الجبل قد غدا بعد سقوط طبريّة باثنتي عشرة سنة، عامرًا عمرانًا جيّدًا، حيث يستطيع أن يساهم بنجدة حاضرته المحاصرة بـ«رجالة كثيرة»، تطوّعوا من عند أنفسهم للدفاع عنها.

ثم إنه يُستفاد من النص نفسه أن أسافل جبل عامل، على الأقل، أي التلال الغربية منه المُسامتة للساحل عند «صور»، ظلت حتى سقوط الأخيرة طاهرةً من الاحتلال. فلكي يأتي «رجّالة كثيرون» منه مع «طغكتين»[3] لنجدة المدينة، يقتضي أن يكونوا أحرارًا فيما يفعلون، إذ إنه من غير المعقول أن تسمح سلطة الاحتلال بمثل تلك المشاركة الواسعة والعلنيّة، ممّن هم تحت سلطتها، بأعمال قتاليّة ضدّها. وهذا أمر مفهوم، فمن وجهة نظر تكتيكيّة، يكون لكلّ مركز قتالي مداه الحيوي الذي يتناسب مع قوّته، وقد أُشير قبل قليل، إلى أن «صور» كانت غاية في المنعة والحصانة. فمن الطبيعي أن تكون سلطة الاحتلال على ما ولّاها معدومة وضئيلة. وليس معلومًا بالتحديد متى امتدّ الاحتلال إلى أعاليه الشرقية، قادمًا من جهة الجنوب ولا ريب. بيد أنه من المؤكّد أن تلك الأعالي كانت تحت سلطتهم في سنة 511هـ/ 1117م. وهو العام الذي أتمّ فيه

(1) هم السلاجقة أنفسهم، فهم يُسمون أيضاً بـ«الأتابك السلاجقة».

(2) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 178.

(3) هو «صاحب دمشق الملك أبو منصور طغتكين الأتابك، من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، فزوجه بأم ولده دقّاق (يعني أنها كانت جاريته، ووهبه إياها وتزوجها)، فقُتل السلطان، وتملّك بعده ابنه دقّاق، وصار طغتكين مقدم عسكره، ثم تملّك بعد دقّاق... وقد كان طغتكين سيفًا مسلولًا على الفرنج». محمد بن أحمد الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لا ط. 1984م، ج 19، ص 519 – 520.

«بلدوين الثاني» ملك القدس[1]، بناء قلعة «تبنين» الحصينة، والتي ذكرها ابن جبير، وذلك لكبح جماح أهل صور[2].

إذا صحّ كل ما قيل عن تطوّر أحوال جبل عامل، فإنه يعني أنه انتقل من حالة شبه الخواء التي كان عليها، وفاقًا لما اقتبسناه من نصّ المقدسي، إلى حالة الامتلاء السّكاني، أو أقلّه حالة الكفاية، كما وصفها ابن جبير، في خمس وثمانين سنة قمرية، أي منذ النّزوح الكبير من «طبريّة» وما والاها في سنة 494هـ/ 1100م، حتى سنة 579هـ/ 1183م، عام عبور ابن جبير، بل أقلّ من ذلك، لأن ابن جبير وصف وضعًا كان راسخًا يقتضي زمنًا وعملًا طويلًا.

هنا، لا بدّ من ملاحظة أمرٍ هامٍ، أن جبل عامل هو البقعة الوحيدة التي كانت قبل الاحتلال شبه خالية. وتزامن عمرانها مع احتلال المنطقة بشكلٍ عام، من خلال الهجرة الكثيفة إليها من وادي الأردن وصور. إذًا، هي ظاهرة فريدة في تاريخ الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، لم يُعرف لها ثانية. ولا بدّ أن يكون لذلك أثره الخاص في هذا الجانب أو ذلك من حياة الناس. بيد أن الافتقار للمعلومات، ومع الأسف، يمنع الخوض في هذا الموضوع الدقيق.

واللافت في الأمر أيضًا، أنك تجد فيه حتى اليوم أسماء قرى ما زالت تحمل جرسًا فرنسيًّا. ومن المعلوم أن اللغة الفرنسيّة، بمختلف لهجاتها المحكيّة، كانت اللغة الرّئيسيّة بين المحتلّين[3]، مع الأخذ بالحسبان التحريف الذي لا بدّ أنه طال

(1) بالدوين الثاني: فرنسي الجنسية، ثالث ملوك مملكة بيت المقدس، أصبح ملكًا على مملكة بيت المقدس بعد وفاة ابن عمّه بلدوين الأول في العام 1117م، كان قبل ذلك أميرًا على منطقة الرّها (وهي مدينة تقع في جنوب شرق تركيا اليوم). تعرّض للأسر في إحدى المعارك على يد القوات الإسلامية وذلك في العام 1123م، وخرج بعد سنة بفدية كبيرة المبلغ. ظلّ على رأس سلطته حتى وافته المنية في سنة 1131م. للمزيد راجع: سعيد عاشور: **الحركة الصليبيّة**، مرجع سابق، ج 1، ص 399 وما بعدها.

(2) فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، مرجع سابق، ص 161.

(3) سعيد عاشور: **الحركة الصليبيّة**، مرجع سابق، ج 1، ص 203.

بعض الكلمات مع مرور الزمن، فأبعدها بنسب متفاوته عن أصلها. يُذكر على سبيل المثال، «باريش» على اسم المدينة التي غدت العاصمة الفرنسية «Paris»، و«فرون»، و«دوبيه»، و«شلعبون» على إسم «Chalon» وهو اسم عائلة من الأشراف الفرنسيّين، وكان لها دور بارز في الحروب الصليبيّة، و«يارون» و«الحلوسيّة» و«أرنون» وهو اسم قلعة ممّا بناه الصليبيّون، و«طلّوسة» على اسم «Toulouse»، وقد أشادها الصليبيّون الفرنسيّون على أرضٍ كانت تُعرف من قبل باسم «النحارير»[1]، وقد سمّوها بهذا الإسم نسبةً للمدينة الفرنسّية المعروفة، تعبيرًا عن الحنين إلى الوطن البعيد، شأن غيرهم ممّن بدّلوا أوطانهم. ومع الزمن، حُرِّف الاسم ليتناسب مع اللسان العربي. ويَذكر السيد محسن الأمين أن في مسقط رأسه «شقراء» مدافن تحمل شارات صليبية لعلهم هم الذين مصّروها[2]. كما إن «تبنين وهونين» هما حصنان منيعان بناهما الإفرنج وسمّوهما، فاسم الحصنَين فرنسي أيضًا، وقامت فيما بعد بلدتان حول كلٍّ منهما، ربّما من قِبل المزارعين المسلمين «أهالي الجبل»، فتحسّس جرس الكلمتين يؤيد ذلك. ونلاحظ أن ابن جبير قال إن مبيته كان أسفل الحصن، ما يوحي بأن بلدة «تبنين» لم تكن قد قامت بعد.

## رابعًا. جبل عامل تحت الاحتلال، وظهور أول قائد عاملي

لمّ «جبل عامل» أهل «طبريّة» وما خلفها من وادي الأردن، وأهل «نابلس» التي كانت أكبر تجمّع سكاني في فلسطين بعد «القدس»، إلى غيرهما من مختلف سكّان الجليل الذين تركوا أوطانهم وحياتهم الرّغيدة، وأهل صور التي صمدت بوجه الصّليبيين ربع قرن بعد أن سقط كل ما حولها. ليبدأ من لحظتها صفحة جديدة من تاريخه[3].

(1) جعفر المهاجر: **جبل عامل بين الشهيدين**، مرجع سابق، ص 49.
(2) محسن الأمين: **خطط جبل عامل**، مرجع سابق، ص 295.
(3) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، دار الحق، بيروت، ط 1، 2001م، ص 15.

الجدير القول؛ إن أولئك الناس بنزوحهم عن أوطانهم نجوا بأنفسهم من المصير المريع الذي حاق بأهل المدن والقرى التي ضربها الغزاة. حيث كان الذّبح مصير الرجال المحتوم، أمّا النساء والأطفال فقد بيعوا بأسواق النخاسة بثمنٍ بخس ليخدموا في الأديرة أو في مختلف الأعمال الشّاقة[1].

ونجد أن مصادر المرحلة تسكت عن أمور كهذه، بالنسبة لمن نزل جبل عامل من هؤلاء النازحين، بعد أن لحق بهم الاحتلال إلى منزلهم الجديد، ما يحمل على الترجيح بأن السّادة الجدد كانوا قد بدأوا يفكّرون بضرورة البقاء على من يعمل لهم في الأرض التي استولوا عليها، ولم يكن لديهم من رجالهم من يكفي للتّفرغ لها في ظلّ مقتضيات الحروب المتواصلة، وضرورات حماية المكتسبات الكبيرة التي حصلوا عليها في الصدمة الأولى. لقد كان فرسان الموجة الأولى من الغزاة يفكّرون تفكيرًا تطهيريًّا، متأثرين بالتعّبئة العنيفة التي تلقّوها، أما بعد أن استقرّ من استقرّ منهم، فمن المتوقّع أن يبدأوا بالاهتمام بالأمور العملية، لا سيّما بما يتّصل منها بشؤون الإنتاج وحاجات المجتمع الجديد.

وإنه لمعروف على نحو الإجمال، أن المحتلّين نقلوا إلى ممتلكاتهم الجديدة في الشّرق، بعد استقرارهم فيه، الصِّيغ الاجتماعيّة السياسيّة المألوفة لديهم، والمعمول بها، خصوصًا في موطن أغلبهم «فرنسا»؛ ومن ذلك نظام القنانة الذي كان أبرز ما في النظام الاجتماعي والإنتاجي في أوروبا الغربية. وهكذا، فإن الأسياد الجدد للأراضي المفتوحة جعلوا الفلاحين الذين كانوا يعيشون في القرى والمزارع عبيد أرض، يملكهم عمليًّا مالك الأرض[2]. وما من سبب يدعو إلى القول بأن أوضاع سكّان الجبل كانت مختلفة في هذا الشأن بأي معنى من معاني الاختلاف.

فمن ذلك يتأكّد أن ما أتى به ابن جبير، بوصف ما كان عليه الناس في جبل عامل،

(1) ميخائيل زابوروف: **الصليبيون في الشرق**، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدّم، موسكو، لا ط. 1986م، ص 134.
(2) ميخائيل زابوروف: **الصليبيون في الشرق**، مرجع سابق، ص 313.

ذلك الوصف المعبّر عن الرّفاه والطّمأنينة، كان وصفًا سطحيًّا ساذجًا، نظر إلى ظاهر الأمور التي تبدو لمجتاز أو عابر سبيل، يطرق بلادًا لم يعرفها من قبل، ولم يُتَح له الاختلاط بالناس ويكشف خبيئهم، الكامن تحت ما رآه من مظهرٍ خادع[1]، وهو الذي اجتاز الجبل في يومٍ وبعضِ يوم. إذًا؛ فما حقيقة ما عبّر عنه بقوله: «وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه»، وعقّب عليه بالاستعاذة من الفتنة، إلا الخضوع والاستكانة ممّن لا يجد على غيرهما سبيلًا.

ويُعرف من ذلك أيضًا، أن الاحتلال هذه المرّة لم يقتلهم رحمةً بهم، بل ليستحيَيهم ابتغاء الاستفادة من قوّة عملهم بما يخدم مشروعه الاستيطاني، فحياة أهل الجبل تحت الاحتلال ما كانت إلا حياة مزرية بائسة لا أفق لها[2]، وقد ولدت أجيالٌ بعد أجيال منهم وعاشت لغير هدف إلّا أن تبقى حيّة. وهذه الكلمات القليلة تلخص كل ما بوسع المتأمّل أن يستنبطه من واقع الحال سُحابة قرن أو يقلّ بقليل من عمر الاحتلال، أي إلى عصر صلاح الدين، وخصوصًا معركة حطّين (583هـ/ 1187م)، وما تلاها من انهيار مملكة القدس الصّليبية[3].

وبعد مرور أكثر من سبعين سنة على الاحتلال الصليبي التام لجبل عامل، بدأ مجرى الأحداث يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى غير صالح المحتلّين، وربما كان من الغنيّ عن البيان، أن ذلك التحوّل قد بدأت إمارته خارج الجبل، ثم نالته فيما نالت، فوضع الجبل حينها كان أعجز وأضعف بكثير من أن يجترح ما من شأنه أن يكون له معنى التّغيير.

جاءت معركة «حطين» لتشكّل الانعطافة الكبرى في تاريخ جبل عامل نحو التحرير، وتاليًا باتجاه الصّيرورة نحو الكيان، بل تأسيس لمرحلة جديدة، عنوانها قيام أول سلطة محلّية فيه، وذلك في طور سياسي فائق الأهمّيّة في تاريخ الجبل المعروف حتى الآن

(1) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 38.
(2) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 21.
(3) جعفر المهاجر: **جبل عامل بين الشهيدين**، مرجع سابق، ص 53.

كمجرّد تجمّع ظرفي لمزق جماعات اضطرّت اضطرارًا قسريًّا للنزوح عن أوطانها وحياتها الهادئة فجأة، ونزول هضاب جبل عامل. هذا التطوّر حمل لهؤلاء النازحين فُرصة العيش في ظل نظام سياسي[1]، حيث أصبح هناك لأول مرّة إمارة على رأسها أحد أمراء «صلاح الدين»، هو «حسام الدين بشارة». فقد كان أحد الأمراء وصاحب عسكر، ثم واليًا على عكّا، فخطّ بانياس. وحين توفيَ «صلاح الدين» كان هو أرفع الأمراء في الشّام مكانة وأعلاهم شأنًا. وجرت على الجبل من بعده خطوبٌ وخطوب، لكن وُلْده نجحوا بطريقة ما في الاستمرار بما كان عليه «حسام الدين» من الإمارة على جبل عامل، وظلّوا على هذا حتى الفتح العثماني للشّام، أي ما يزيد على الثلاثة قرون. ولعل هذه الخلاصة تعين على الدخول في الحركة المعقّدة لهذا الأمير، وفي موقعه من صناعة كيان جبل عامل.

إن المصادر المعاصرة لا تذكر سوى رتبته «الأمير»، ولقبه «حسام الدين»، واسمه «بشارة». دون أن تنسبه نسبةً ما[2]. ثم إنها لا تأتي على ذكره إلّا بمناسبة ما يتّصل بغيره، أي حيث تتقاطع سيرته مع سيرة «صلاح الدين»، أو سيرة أخيه الملك العادل، أو سيرة ابنه الملك الأفضل. كما أنه لم يُعثَر على سيرة مستقلّة له، شأن غيره من أمراء ذلك الزّمان الذين لم تخلُ من ذكرهم أمّهات كتب التّراجم والسّير بوصفهم أبطال الآوان.

لكن المصادر المعنيّة بجبل عامل تنقل له اسمًا أكثر إيحاءً، هو «حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن عامر بن مهلهل بن سلامة العاملي»[3]. وقد ورد ذكر «حسام الدين» لأول مرة في نصٍّ يعود إلى يوم الجمعة 8 جمادى الآخرة 582هـ/ 27 أيلول 1186م، أي إلى ما قبل سنة تقريبًا من موقعة «حطّين»، حينما سيَّره «صلاح الدين» إلى أبيه في دمشق[4].

(1) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 55.
(2) جعفر المهاجر: **حسام الدين بشارة أمير «جبل عامل»**، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2005م، ص 35.
(3) علي داود جابر: **معجم أعلام جبل عامل**، دار المؤرخ العربي، النجف الأشرف، ط 1، 2009م، ج 3، ص 40.
(4) بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994م، ص 72.

أقام صلاح الدين الأيوبي في دمشق، في ذلك التاريخ أو قبله بقليل، وبادر على الإشراف بنفسه على حركة التّعبئة الشاملة لكلّ ما استطاع جمعه من القوى الإسلاميّة، والموارد الماديّة والبشريّة، في كلٍ من مصر وحلب وحمص والجزيرة[1] وسائر بلاد الشام، بالإضافة إلى بلاد الكرد والترك[2]. المهم في هذا المورد من البحث، أنه ما إن وقعت المعركة المنتظرة في سهل «حطّين»، وانجلت عن نصر المسلمين، فإذا «بالأمير حسام الدين» قد غدا من كبار أمراء الجيش العامل تحت قيادة «صلاح الدين»، وأصبح اسمه شيئًا مذكورًا في كتب السِيَر التي تصف الأعمال التي تلت يوم المعركة.

ولقد كان لقب الأمير، يومذاك، ذا صفة عسكرية، لها معنى محدّد، يكتسبه صاحبه فقط لوجود عسكر كبير تحت إمرته، ضمن التحالف الذي يتشكّل منه جيش «صلاح الدين»، والذي يجمع تشكيلات عربيّة وكرديّة وتركيّة تنتمي إلى مناطق مختلفة، كلٌ يعمل تكتيكيًّا في ساحة المعركة بأمر أميره وضمّه إلى الجيش العامل في قتال الصليبيّين[3].

والمؤكّد أن «حسام الدين بشارة» لم يكن استثناء عن هذه القاعدة. وفي هذا السبيل يذكر المؤرخ «جعفر المهاجر» أنه في الوقت الذي كان فيه الجزء الأكبر من جبل عامل يرزح تحت الاحتلال، كان فريق من أهله قد بدأ ينظّم نفسه بقيادة «حسام الدين بشارة»، مأخوذًا بالتغيير الجذري الذي أدخله «صلاح الدين» على العلاقات بين الناس، نتيجة سياسته التي اعتمدها في بلاد الشام. فهو كان رجل سياسة من الطراز الرفيع عَرِف كيف يدير القوى التي بين يديه في عموم الشام، أو التي كان في وسعه اكتسابها إلى

(1) الجزيرة تضم كلاً من محافظة نينوى في العراق ومحافظة الحسكة السورية بشكل كامل، بالإضافة إلى مناطق من محافظتَي دير الزور والرقّة في سوريا، ومحافظات أورفاوماردين وديار بكر في تركيا. للمزيد راجع: موقع **مدينة القامشلي** الإلكتروني، لا ت. شوهد في تاريخ 22/ 6/ 2025، على الرابط:
*.http://www.qamishly.com/mainpages/turath/index.htm*

(2) سعيد عاشور: **الحركة الصليبيّة**، مرجع سابق، ج 2، ص 81.

(3) جعفر المهاجر: **حسام الدين بشارة**، مرجع سابق، ص 68.

جانبه، على عكس سلفه «نور الدين محمود بن زنكي السلجوقي»[1]. كما إنه استطاع أن يجتاز بعض الحواجز المذهبيّة لكي لا يسمح لعوامل الفرقة المذهبيّة أن تفعل فعلتها التاريخية، وتنال من مساعيه وسياسته، الأمر الذي سيكون لمصلحة العدو في النهاية، وهو على عكس ما عُرِفَ عن سيرة «صلاح الدين» في مصر.

ويُضاف أيضًا في معرض التأمّل في حوافز أبناء «جبل عامل» للتأثّر عمليًّا بالبُعد الجهادي الذي أشاعه «صلاح الدين» من حوله، أن أول انتصار سجّله الجيش الإسلامي على الصليبيّين حصل على أرض «جبل عامل» وبالتحديد في «سهل مرجعيون». فباتت المنطقة خطّ تماس ساخن مع العدو، تتّخذه القوات الإسلامية الآتية من «دمشق» و«بعلبك» وغيرهما من مناطق الحكم الأيوبي مسلكًا للإغارة على الأرض المحتلة. إذًا، هذه المرحلة هي الفرصة الذهبيّة التي اغتنمها «حسام الدين» في تقوية جيشه وتوسيعه واستقطاب ما استطاع من أهله وشعبه إليه[2]، وتثبيت نفسه قائدًا لهذا الشعب ومؤسّسًا لهذا الكيان. كيف لا وهو القائد الذي سُمِّيت البلاد عاملة باسمٍ آخر أيضًا، يحمل اسمه، فاستمرّت التسمية الشعبية هذه لأكثر من ثمانية قرون من بعده تحت اسم «بلاد بشارة»[3].

إذًا، اكتسب لقب الأمير لوجود عسكر له ضمن التحالف الذي يتشكّل منه جيش «صلاح الدين». وقد كثر ذكر جيشه أكثر بعد «حطين»، وذلك في سياق وصف الأعمال القتالية ضد الصّليبيين. وهنا، ترد عبارة ذات مغزى، وقد خصّ بها العماد الأصفهاني «عسكر بشارة» دون سواه، وهو يصف تشكيل الجيش الإسلامي أثناء تقدّمه للقتال حول عكّا، حيث قال: «... والأمير بشارة، صاحب بانياس، وهو الذي لا يرجو لقاءه إلّا من بان فيه البأس»[4].

ففي شهر رمضان 586هـ/ 1190م، كان قد غدا واليًا على بانياس، بمسمّى «صاحب

(1) المرجع نفسه، ص 70.

(2) جعفر المهاجر: **حسام الدين بشارة**، مرجع سابق، ص 72.

(3) المرجع نفسه، ص 75.

(4) محمد بن محمد بن حامد المعروف بـ«العماد الأصفهاني»: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، المؤسّسة العامّة للتأليف، القاهرة، لا ط. 1965م، ص 442.

بانياس»[1]، وكان حينها جبل عامل جزءًا من هذا الخط «خطّ بانياس». وبهذه الصفة، إضافة إلى أنه شارك في الأعمال القتالية لصلاح الدين، أصبح من أعضاء المجلس الذي كان عليه أن يتّخذ القرارات العسكريّة الأساسيّة، والذي ترأسه السلطان أو أخوه الملك العادل[2]. أمّا في أوقات هدوء الجبهة، فقد كان مكلَّفًا بالتضييق على «صور»، وأميرًا على «عسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف»[3].

كان الأمير بشارة في عام وفاة «صلاح الدين» (589هـ/ 1193م) قد بلغ أوج عزّه. ففي ذلك التاريخ، وصفه العماد الأصفهاني بـ«المقدّم على هؤلاء»[4]، بما يشير إلى الأمراء الذين حضروا مجلس الملك الأفضل لتحليفهم على الإخلاص له، بينما كان والده «صلاح الدين» في طور الاحتضار. وهكذا ظلَّ «بشارة» بعد «صلاح الدين» على ولايته، وإن كان قد نقل قاعدته إلى تبنين، أي إلى قلب جبل عامل[5].

وقد عاش الجبل، بعد نقل مركز الحكم إلى «تبنين» سنواتٍ طيّبة، عمّ فيها السلام وساد الهدوء، وذلك، أوّلًا، بسبب حالة السلم النّسبية التي نعمت بها منطقة جبل عامل وما حولها، بعد إبعاد المحتلّ قدر الإمكان عنها، وفشل الحملات الصليبيّة المتلاحقة على بلاد الشام، وخصوصًا فلسطين وجوارها. وثانيًا، بفضل العسكر العاملي المرهوب الجانب، والذي تمرّس بالقتال سنوات تحت قيادة أميره بشارة[6]، وخاض معارك عدّة تحرّرت بفضلها الكثير من المدن والقرى التي كانت محتلة[7]. وبعد سنتَين ونصف السنة من غياب العسكر العاملي خارج جبل عامل، عاد ليتولّى حمايته من أي

(1) المصدر نفسه، ص 442. بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مصدر سابق، ص 147.
(2) العماد الأصفهاني: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، مصدر سابق، ص 555. بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مصدر سابق، ص 195.
(3) بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مصدر سابق، ص 21.
(4) العماد الأصفهاني: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، مصدر سابق، ص 629.
(5) جعفر المهاجر: **حسام الدين بشارة**، مرجع سابق، ص 51.
(6) المرجع نفسه، ص 52.
(7) المرجع نفسه، ص 50.

اعتداء يأتيه، بخاصّة من جانب «صور» التي غدت منذ تحرير «القدس» المركز الرئيس لقوات الاحتلال[1].

هذا الوصف لوضعٍ فرضه أبناء الجبل بقيادة أميرهم لم يستمرّ طويلًا، فالعبث السياسي الأيّوبي بعد «صلاح الدين»، والنزاع الذي لا يتوقّف عند المكاسب الشخصية، بين أمراء البيت الأيّوبي، حمل له بداية النّهاية. فهم وفي سبيل ذلك لم يتورّعوا عن ارتكاب أفظع الموبقات السياسية[2].

ظلَّ «حسام الدين» متّخذًا جانب الملك الأفضل ووفيًّا لقَسَمه له، بل واشترك بعسكره في حصار دمشق وفيها الملك العادل، سيف الدين أبو بكر أحمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان، في سنة 595هـ/ 1198م، حيث انتهى الحصار دون إنجازٍ يُذكر. وبعد مرور سنتين، حاصر عسكر العادل «بانياس» وفيها «حسام الدين»، ذلك بعد أن استتبّ الأمر له في «دمشق»، ولكن «حسام الدين» آثر البقاء فيها وعدم العودة إلى جبل عامل لتجنيبه الدمار الذي افترض أنه قادم لا محال، فقاتل وأُسِر، وقُتِلَ بعض وِلدِه (3). وهنا نرى كيف أن «حسام الدين» كان جزءًا من الصراع الأيوبي، وذلك بغض النظر عن أسبابه ودوافعه لهكذا عمل.

وفي 26 ربيع الآخر 598هـ/ 25 آذار 1201م، أي بعد أربعة أشهرٍ من أسره، توفيَ حسام الدين بشارة في سجن قلعة بانياس التي آلَ أمرها إلى عدوّه، وذلك في ظروفٍ غامضة[4].

وكما مرّ سابقًا، فإن خلفاء «حسام الدين» نجحوا في الاحتفاظ بإمارتهم على جبل عامل طيلة العهد المملوكي، لكن التاريخ طوى ذكرهم فجأة بعد الفتح العثماني للشام

(1) المرجع نفسه، ص 52.
(2) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 59.
(3) جعفر المهاجر: **حسام الدين بشارة**، مرجع سابق، ص 59 ـ 60.
(4) المرجع نفسه ص 61.

فلم يعد يُسمع لهم ذكر[1]. هذا؛ وتذكر بعض المصار أن آل «علي الصغير» الذين عرفوا بآل «الأسعد» لاحقًا، والذين حكموا جبل عامل منذ ذلك الحين، وحتى تاريخ ليس ببعيد عن زماننا هذا، هم ممّن ارتبطوا بقرابة مع سلالة «حسام الدين بشارة»، إذ إن الجدّ الأكبر لآل «علي الصغير» «محمد بن هزّاع الوائلي القحطاني» كان مصاهرًا لأحد أعقاب الأمير بشارة، وإليه انتقلت الإمارة في جبل عامل بعد اختفاء سلالة الأمير بشارة[2].

## خامسًا. جبل عامل بين التحرير وعودة الاحتلال ثم التحرير النهائي

بعد أربع سنوات من وفاة «صلاح الدين»، كان الصليبيّون في المنطقة قد أعادوا تنظيم ما بقيَ من صفوفهم، وتلقّوا نجدة من الغرب، فبدأوا هجومًا مضادًّا، مُستغلّين فيما يبدو اضطراب المسلمين وغياب القيادة الجامعة. فاستعادوا العديد من المدن المهمّة، منها «بيروت». وفي هذا السياق، استطاعوا اختراق جبل عامل وصولًا إلى «تبنين» وبدأوا حصار قلعتها المنيعة، لكن أبناءها صمدوا وقاتلوا قتالًا شديدًا حتى اضطرّ المهاجمون إلى التّخلّي عن حصارها، وعادوا خائبين باتجاه «صور»[3].

بعد ذلك، ساد وضع من التوازن السلبي بين الفريقَيْن، وكان يملك من مقومات البقاء وأسبابه ما أعطاه أن يستمرّ لمدة ليست بالقصيرة. فالصليبيّون كانوا ما يزالون يعانون آثار «حطّين»، فضلًا عن بدء ظهور أمارات ملل الغرب من الشّعار الصليبي إجمالًا. أما المسلمون فلم يكونوا أحسن حالًا منهم، بسبب النزاعات الدائمة بين ملوك البيت الأيوبي. والحقيقة أن تلك النزاعات، دون غيرها، هي التي أدّت في النهاية إلى تخريبه، بعد أن عاش ثلاثًا وأربعين سنة عدًّا، وذلك بإشارة إلى الصلح

(1) المرجع نفسه ص 82.

(2) محمد تقي الفقيه: **جبل عامل في التاريخ**، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1986م، ص 73 ـ 75. محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، دار النهار للنشر، بيروت، لا ط. لا ت. ص 28 ـ 36. محسن الأمين: **خطط جبل عامل**، مرجع سابق، ص 133. محسن الأمين: **أعيان الشيعة**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لا ط. 1986م، ج 8، ص 129.

(3) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 59.

الذي حصل بين الملك الكامل «محمد» بن العادل الأيوبي، أخُ صلاح الدين، وبين الامبراطور «فريدريك» الالماني، في سنة 626هـ/ 1229م[1].

فقد انعقد في ذلك التاريخ، بين الطرفين ما سُمِّيَ «صلح»، وما هو بالصلح في الحقيقة، بل مجرّد تنازل مجّاني للغزاة الصليبيّين عن مناطق واسعة من البلاد. وقد احتلّوا بمقتضاه «بيت لحم» و«الناصرة» و«القدس» و«تبنين» و«صيدا». وهذا يدلّ على أن أكثر مناطق جبل عامل، وهي التي تحررت قبل أربعين سنة ونيّف بسواعد أبنائها، عادت إلى سيطرة الاحتلال عليها بالمجّان، دونما أدنى مبرر أو مسوّغ سياسي أو عسكري[2]، إلا ليفرغ «الكامل» نفسه وعسكره للصراعات الداخليّة.

لم يدم مفعول الصلح بين «فريديريك» و«الكامل» طويلًا، إنما امتدّ لخمسة عشر عامًا فقط. أي منذ سنة 626هـ/ 1229م، حتى سنة 641هـ/ 1244م، سنة اقتحام مدينة «القدس»، وبالتالي التحرير الثاني والنهائي على أيدي «الخوارزميين»[3] الذين زحفوا من شمالي الشام، فسيطروا على كل ما وقع تحت أيديهم، باستثناء دمشق لحصانتها وكثرة المقاتلين فيها، فأعرضوا عنها وتوجهوا نحو «الجليل» مسيطرين على «طبريّة» ثم «نابلس» وصولًا إلى مدينة القدس التي دخلوها دون عناء يُذكر، فانتهى الوجود الصليبي هناك، والذي كان ضعيفًا حينها[4].

يبدو هنا، أن «جبل عامل» ظل بأجزاء منه تحت الاحتلال مدّة تناهز الربع قرن من ذلك الاعتراف. ففي سنة 665هـ/ 1266م، حرّر السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس»

(1) المرجع نفسه، ص 60.

(2) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 60.

(3) هي سلالة تركية مسلمة سنّيّة حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسط وغرب إيران بين السنوات 1077 ـ 1220م، كانوا أتباعًا إقطاعيّين للسلاجقة، ثم استقلّوا وأصبحوا حكّامًا مستقلين في القرن الحادي عشر للميلاد. كان لهم دورٌ في خراب بلدانٍ وإعمار أخرى، شأن غيرهم من الذين حكموا البلاد كالسلاجقة والمماليك والأيوبيّين وغيرهم. وكانت نهاية دولتهم على يد المغول في سنة 617هـ ـ 1220م. للمزيد راجع: ابن الأثير الجزري: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987م، ج 10، ص 486ـ487؛ 490؛492.

(4) سعيد عاشور: **الحركة الصليبيّة**، مرجع سابق، ج 2، ص 275 ـ 276.

قريتَي «هونين وتبنين»، وفي العام التالي حرّر «الشقيف أرنون»، أما صور الحصينة فبقيت صامدة في أيدي الغزاة لمدة ربع قرنٍ آخر، إلى أن تحرّرت بالكامل في سنة 690هـ/ 1290م[1]. وبذلك انتهى الاحتلال الصليبي لجبل عامل، وبالتالي انتهى كل الوجود الصليبي في الشّرق.

مهما يكن من أحداث متسارعة، أخيرًا انجلى الاحتلال وسط آلام كبيرة. ومن المفهوم أن يكون التحرير بداية لمرحلة جديدة من تاريخ الجبل. فها هو بعد أن غدا عامرًا بالناس، ذاك الحدث الذي كان من مضاعفات الغزو الصليبي كما عُرف، قد ارتفع عنه نير الاحتلال. وهذان العاملان جديدان في مسار الحياة. ولعل في قائمة الكلام عن النظام السياسي، الكلام عن قيام أول سلطة محليّة فيه، حيث أن صلاح الدين ولّى الأمير حسام الدين بشارة خطّ بانياس، ومنه جبل عامل. وهو حدث مهمّ جدًّا في تاريخ الجبل الذي كان حتى ما قبل بشارة مجرّد تجمّع ظرفي لبشر مغلوبين على أمرهم كما رأينا.

ويجدر التذكير بأن جبل عامل ظل يُعرف أيضًا، وحتى وقتٍ قريب جدًّا، باسم آخر هو «بلاد بشارة»، نسبة إلى الأمير حسام الدين نفسه، وربّما أيضًا إلى خلفائه. وهذا الاسم كان الأكثر جريانًا على ألسنة الناس، بينما احتفظت الأدبيّات بالاسم التاريخي «جبل عامل». هكذا يتوجب وضع كلا الاسمَيْن في مستواه، سواء من حيث الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، أم من حيث البنية الفكرية التي ينتمي إليها، فنادرًا ما يذكر اسم «بلاد بشارة» في الأدبيّات أو في النصوص التاريخيّة، أكانت تلك تابعة لمؤسّسات السلطة الإدارية حينها، أو في نصوص المؤرّخين. وبالمقابل، فإنك نادرًا ما تسمع اسم «جبل عامل» في اللغة اليوميّة للناس، بل كان الاسم المتداول على الألسن «بلاد بشارة»، حتى جرى استيعاب الجغرافيا والناس للتقسيمات الإداريّة الجديدة، التي اعتُمِدَت في وضع الحدود السياسية وفاقًا لمصالح الاستعمار، وعلى

(1) جعفر المهاجر: **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، مرجع سابق، ص 62.

رأسه الاحتلال الفرنسي لجزء من بلاد الشام. فأصبح الاسم الأكثر تداولًا على ألسنة الناس هو «الجنوب» أو «لبنان الجنوبي»، وبات الاسم الرسمي، بينما ظلّت الأدبيّات مخلصة للاسم الأكثر عراقةً والأكثر أثرًا عند المثقفين «جبل عامل»، لما يوحي به من أمجاد التاريخ، وإثباتًا لعمقٍ ثقافي وتجذّراتٍ حضارية، ولهويةٍ محليّة ما زالت حيّةً في نفوس أهلها.

إن المغزى الكبير من هذا التبدّل يكمن في الانتقال من «جبل عامل» إلى «بلاد بشارة» الذي لا ريب أنه حصل في ظل متغيّرَيْن مهمَّيْن:

- **الأول**: المتغيّر السّكاني الذي انتهى إلى إعمار أرضه، وقد غدا الآن متغيّرًا تاريخيًّا.
- **الثاني**: المتغيّر السياسي المتمثّل في أول سلطة محليّة سياسية قامت على أرضه، ذلك أنه بالنسبة للناس العاديّين، فإن اسم «جبل عامل» غدا اسمًا مقطوعًا؛ فقد كل مسوّغاته بعد أن خلّف على الأرض قومًا لا علاقة لهم بقبيلة «عاملة»، وبقيام سلطة جديدة من بشارة وبنيه من بعده. وهكذا، انتقلوا بكل بساطة إلى الاسم الأصدق تعبيرًا عن الواقع السياسي السّكاني الجديد، فانتزعوا الاسم من أكثر العناوين وضوحًا، أي من السّلطة السياسية الأولى في البلاد.

ويساعد التأمل في هذا التّبدّل، لا سيّما أنّ أسماء الأماكن والبقاع والمعالم الجغرافيّة عمومًا هي من أكثر التّسميات ثباتًا، ولا تتبدّل إلّا بتأثير سياسي أو ثقافي قوي، على تصّور النقلة الهائلة التي حدثت لجبل عامل في ظل الحروب الصّليبيّة وتداعياتها، سواء على الصعيد السكاني أم على الصعيد السياسي.

## الخاتمة

هنا؛ نستطيع القول حقًّا، إن جبل عامل لم يكن ذو تواجد سكاني يُعتدّ به قبل الاحتلال الصليبي لجزء من بلاد الشام، لا سيّما فلسطين ووادي الأردن، وقد كان

لهجرة السكان من مدن وقرى البلدَيْن المذكورَيْن بعد الغزو الصليبي السبب المباشر لما انتقل إليه هذا الجبل من عمران سكّاني، وما نتج عن ذلك من حراك سياسي وعسكري، ومن ثم ثقافي فيما بعد، أعطى أهل الجبل الجدد هويتهم الجديدة، وانتماءهم الجديد، وهو ما سطّروه بالدم حتى أخرجوا المحتل من أرضهم على دفعتَين، وهو ما سيراه المتابع لتاريخ الجبل بعد هذه المرحلة، ووصولًا إلى ما نحن عليه اليوم، فقد تعدّدت قوى الاحتلال التي مرّت على هذه المنطقة وسكّانها، وتعدّدت أيضًا المقاومات التي تصدّت للمحتلّ في كل مرحلة، إلى أن وصلنا إلى مرحلة الاحتلال الأخير وهو الإسرائيلي بعد احتلاله فلسطين. ويمكننا القول أيضًا إن جبل عامل قد رسم لنفسه، ومن خلال أبنائه، مجده الخاصّ منذ فجر تاريخة، فلم يهادن ولم يخضع، وصنع هويّته المستقلّة المتعدّدة الأبعاد.

## المصادر والمراجع

### أ. الكتب


1. آل صفا، محمد جابر: **تاريخ جبل عامل**، دار النهار للنشر، بيروت، لا ط. لا ت.
2. ابن الأثير الجزري: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987م.
3. ابن جبير، محمد بن جُبير الكناني: **رحلة ابن جُبير**، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2010م.
4. ابن شداد، بهاء الدين: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994م.
5. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط 2، 1908م.
6. الأمين، محسن:
   1) **خطط جبل عامل**، الدار العالمية، بيروت، ط 1، 1983م.
   2) **أعيان الشيعة**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لا ط. 1986م.
7. بزّي، مصطفى: **الشيعة في لبنان، تاريخهم ودورهم، البدايات حتى عصر الشهيد الأول**، بحث ضمن المؤتمر الدولي في فكر الشهيدين، إصدار جمعية الإمام الصادق لإحياء التراث العاملي، بيروت، ط 1، 2011م.
8. جابر، علي داود: **معجم أعلام جبل عامل**، دار المؤرخ العربي، النجف الأشرف، ط 1، 2009م.
9. خسرو، ناصر: **سفر نامه**، ترجمة يحيى الخشّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1993م.
10. خصباك، شاكر: **في الجغرافيا العربية**، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1988م.
11. الذهبي، محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لا ط. 1984م.

12. زابوروف، ميخائيل: **الصليبيون في الشرق**، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدّم، موسكو، لا ط. 1986م.
13. سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق علي سويم، مطبعة الجمعيّة التاريخيّة التركيّة، أنقرة، 1968م.
14. الشارتري، فوشيه: **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة زياد العلي، دار الشروق للنشر والتّوزيع، عمّان، ط 1، 1990م.
15. عاشور، سعيد: **الحركة الصليبيّة، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 9، 2010م.
16. العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، المؤسّسة العامّة للتأليف، القاهرة، لا ط. 1965م.
17. الفقيه، محمد تقي: **جبل عامل في التاريخ**، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1986م.
18. كحالة، عمر رضا: **التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية**، المكتبة العربية، دمشق، لا ط. 1972م.
19. المقدسي، محمد بن أبي بكر البناء: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1991م.
20. المهاجر، جعفر:
1) **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا**، دار الملاك، بيروت، ط 1، 1992م.
2) **جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي**، دار الحق، بيروت، ط 1، 2001م.
3) **حسام الدين بشارة أمير «جبل عامل»**، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2005م.
4) **جبل عامل بين الشهيدين**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، قسم الدراسات العربية، دمشق، ط 1، 2005م.
5) **شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه**، دار بهاء الدين العاملي للطباعة والنشر، بعلبك ـ لبنان، ط 1، 2013م.

21. نور الدين، حسن: **عاشوراء في الأدب العاملي المعاصر**، الدار الإسلامية، بيروت، ط 1، 1988م.

## ب. موقع إلكتروني

1. موقع **مدينة القامشلي** الإلكتروني، لا ت. شوهد في تاريخ 22/ 6/ 2025، على الرابط: *http://www.qamishly.com/mainpages/turath/index.htm*.

صدر عن

# دار بيروت الدولية

د. فاطمة مصطفى دقماق

# الذّكاءُ العاطفي

## سرُّ نجاحك في الحياة

تقديم البروفسور فوزي أيوب

الفصل الأول: مفهوم الذكاء العاطفي ونشأته

الفصل الثاني: الذكاء العاطفي على المستوى الشخصي

الفصل الثالث: كيف نُنمّي الذكاء العاطفي

الفصل الرابع: أهمية الذكاء العاطفي في مجالات الحياة

تجدونه لدى:

- دار بيروت الدولية، حارة حريك، 03/973983.
- الدكتورة فاطمة مصطفى دقماق 03/788626 / الجنوب.
- مكتبة السيد محمد حسين فضل الله العامة، حارة حريك، جانب مستشفى بهمن.
- مكتبة فيلوسوفيا، حارة حريك، شارع الشيخ راغب حرب، 71/548418.
- مكتبة أفكار، حارة حريك، 03/007768.

دار بيروت الدولية
للطباعة والنشر والتوزيع

EUROPUB Publishing Company LTD, UK

CheckInCertificate

# CERTIFICATE
## OF ACHIEVEMENT

THIS CERTIFICATE IS PROUDLY PRESENTED TO

**Sada Al - Oulum**

(ISSN: 2959-9423)

has been successfully indexed in **EuroPub Database** in year **2024**, a prestigious repository of scientific literature and research. **"Sada Al - Oulum"** has met the rigorous standards and criteria set forth by EuroPub Database for inclusion in EuroPub database, demonstrating excellence in scholarly content, editorial quality, and relevance to the scientific community.

This indexing acknowledgment is a testament to the dedication and commitment of the editorial board, authors, and contributors of **"Sada Al - Oulum"** to advancing knowledge and innovation in ***Arts, humanities and social sciences***.

This certificate is issued under the cover of EuroPub Publishing Company, Ltd., UK.

**Euro Code:** 1655739804 **Issue on:** 2024-09-14 **Validity:** 1 Year

Please check it as online with Euro Code: https://cms.europub.co.uk/qr_check

VALID

SIGNATURE

Database: http://europub.co.uk/

INTERNATIONAL Scientific Indexing

Fresh Ideas for Growing your Citations

## Certificate

This is to certify that **Sada Al-Oulum** is indexed in International Scientific Indexing (ISI). The Journal has Impact Factor Value of **0.623** based on International Citation Report (ICR) for the year **2023-2024** .
The URL for journal on our server is
https://isindexing.com/isi/journaldetails.php?id=23574

Editor ICR Team (ISI)

International Scientific Indexing (ISI)

INTERNATIONAL Scientific Indexing

Fresh Ideas for Growing your Citations

## Certificate

This is to certify that **Sada Al-Oulum** is indexed in International Scientific Indexing (ISI). The Journal has Impact Factor Value of **0.961** based on International Citation Report (ICR) for the year **2024-2025**

The URL for journal on our server is
https://isindexing.com/isi/journaldetails.php?id=23574

Editor ICR Team (ISI)

International Scientific Indexing (ISI)


موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com
البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com
الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: ISSN 9431-2959